

الشريف غالب يسترد مكة من الموحدين

يقول ابن بشر في أخبار سنة ١٢١٨ هـ . ما يأتي :
(.. وفيها رحل الشريف غالب بعسكره من جدة الى مكة ، ونزل أهل القصور الذين رتبهم سعود فيها ، كما تقدم ، فأخرجهم منها بالأمن واستولى على مكة .)

هذه هي رواية ابن بشر عن استرداد مكة وهي تدهش بإيجازها وغموضها ، مع ان الحادثة جلية الشأن ، وقد كان ابن دحلان أكثر عناية بأخبارها ، فنوّه بخطورتها وسمّاها « غزوة الفتح » ، وهو اسم يبدو لنا مضحكاً حين نعلم ان جنود الترك كانوا وراء هذا الفتح ، ولكنه بيّن لنا ، على كل حال ، ان الحامية السعودية لم تستسلم دون قتال .

يقول ابن دحلان ان الشريف غالب توجه من جدة الى مكة لإخراج من فيها من جماعة سعود وأبي نقطة ، وان والي جدة التركي شريف باشا كان يصحبه ، وكان معهما (كثير من العساكر والجنود وثلاثة مدافع ، منها مدفع كبير أهدها له إمام مسقط) ، فنزل أولاً بالزاهر ، ثم أرسل العساكر والعبيد وأحاطوا بالقلعة التي يجياد ، وفيها من خلفهم سعود ، وترسوا البيوت التي تليها وحصروهم أشد الحصار .

ودخل الشريف مكة بعد الاشراف ولم ينازعه الشريف عبدالمعين في ما يروم . ثم رتب بعض العسكر وأمرهم أن يحيطوا بالبستان الذي فيه من خلفهم أبو نقطة ، وأثار الحرب عليهم وركب عليهم المدفع ، وصنع لغماً تحت الأرض ،

فلما أثاروه رفع البرج الى الجو بمن فيه من الجند، ومع ذلك ما برحوا عن القتال، فطلب مدفعاً كبيراً من جدة، لا يمكن سيره بدون خمسين بعيراً، فلما وصل رموا به جدار البستان، فصار في كل رمية يطرح جانباً من البنيان، حتى وقع منه شيء كثير، فطلبوا الأمان فأعطاهم الأمان، واستأجر لهم جمالاً يتوجهون عليها الى بلادهم^(١).

وأما الذين في القلعة فما فتر العسكر عن قتالهم، وكان يخرج جماعة منهم بالليل ويحرقون بعض العيش ويعودون الى القلعة، ونزل جماعة منهم يوماً في ضحوة النهار ونهبوا أغناماً فتفازعت العسكر عليهم فرجعوا الى القلعة، فوضع الشريف لهم حرساً لئلا يخرج أحد منهم من القلعة.

وبعد ثلاث أو أربع ليال هربوا من القلعة في جنح الليل، وما طلب الذين كانوا في البستان الأمان إلا بعد علمهم بخروج الذين كانوا في القلعة، وكانت مدة الحصار للجميع ٢٥ يوماً.

تلك رواية ابن دحلان، ولم يغفل الجبرتي، في تاريخه، قصة عودة الشريف غالب الى مكة، ولكنه لخص القصة بكلمة غريبة جداً، مع شدة تحريه للحق، وما ندرى كيف تورط فيها، قال:

(... رجع الشريف غالب الى مكة .. ورجع كل شيء الى حاله الأول، ورد المكوس والمظالم.)

وهذا الكلام قد يوهم ان المكوس والمظالم جرت في فترة النفوذ السعودي - أيام عبد المعين - مع ان المستشرق بركارت، الذي كان مقيماً في مكة قريباً من هذا الوقت، شهد شهادة حق، وهي ان الوهابيين أحسنوا الدخول الى مكة ولم يرتكبوا فيها أية مظلمة^(٢).

(١) يقول النعمي في تاريخه ان عدد حامية عير في مكة كان ٤٠٠ .
(٢) يذكر ابن بشر حادثة استرداد الشريف لكعة بعد غزوة سعود للعراق في ولايته، مع انها تمت في ولاية عبد العزيز، وكان يجب تقديمها ..